قوانين عنصرية لمحو الوجود الفلسطيني

رياض مصاروة

لا أريد في تعقيبي هذا أن يحصل معي، ما حصل لذلك الذي لم يقتنع بضرورة العيش في بلد معين، لقد قال: أستطيع أن أجوع في أي مكان، لكنه تجول في أحد الأيام في مدينة محتلة من قبل أعداء بلدته، فداهمه أحد ضباط هؤلاء الأعداء وأجبره على النزول من الرصيف. نزل وتأكد في قرارة نفسه من استيائه تجاه هذا الرجل، وبالحقيقة ليس فقط تجاه هذا الرجل، وإنما تجاه البلد الذي ينتمي اليه هذا الرجل، حتى أنه تمنى أن يفنى بالزلزال. ثم سأل: هل أصبحت شوفينيا عندما التقيت بشوفيني؟ ولهذا السبب على المرء أن يقضي على الحماقة لأنها تصنع من الذي يقابلها أحمقا..(من حكايات السيد كوينر لبرتولد بريخت)

ان التأكيد على الانتماء العرقي، وتمييز هذا الانتماء عن انتماءات الآخرين هدفه تأكيد افضلية عرق على عرق آخر. هذا النوع من التأكيد يؤدي بدوره الى العنصرية, وأسوأ هذه الانتماءات هي تلك المنسوبة الى أسطورة إلهية والعنصرية التي نتكلم عنها متشرشة في الأسطورة نفسها التي اختلقوها: لا حق وجودي لشعوب أخرى في هذا الحيز المكاني.

ان العنصرية نابعة ايضا عن عدم مقدرة مجموعة على تسمية نفسها بدلالات أخرى غير العرق، وهنا يأتي التأكيد على العرق اليهودي في دولة اليهود، وبما أن الأسطورة تحكي أن الله اختار الشعب اليهودي كأفضل الشعوب، فهذا يعني أيضا بالنسبة لهم أن الأسطورة لم تفقد معناها منذ نشأتها أو بالأصح منذ أنشأوها. وهم يلجأون الى اصطلاح "اسرائيل القديمة"، التي هي اختلاق سياسي أيديولوجي، هدفه خدمة الصهيونية وإعطائها الشرعية لسلب الشعب الفلسطيني، وفي الوقت نفسه يلجأون الى علم الآثار ودراسة التوراة لإيجاد الحجج لمحو الفلسطينيين من تاريخ فلسطين، والتوراة مرت عملية صهينة سياسية ضحاياها الأساسيون هم الفلسطينيون، وبذلك تم تزييف تاريخ البلاد الحقيقي، هذا ما تؤكده دراسة"كيت ويتليم" عن هذا الموضوع، وهذه الدراسة تتيح أيضا نقاشا حول الحقيقة التاريخية والمرسوم الأخلاقي للكتب المقدسة مقابل استعمالهما كشهادة تاريخية.

وبما أن التسمية، تسمية العرق لا تجد لها دلالات أخرى، وأهمها الدلالات الثقافية الحضارية، فإنها

تجمدت في الدلالة العرقية التي لم تستطع أن تركز على دلالات أخرى، ومن هنا علينا أن نفهم القوانين العنصرية على خلفية أيديولوجية، وأن هذا العرق المختار من قبل الله لا يسمح لعرق آخر أن يؤسس له وجودا وأن يؤسس له تاريخا.وبما أن هذا العصر (هذا الزمن) لا يسمح بمحو عرق بابادة جسدية، فهم يلجأون الى القوانين التي تمنكهم أن يمحوا العرق الآخر تدريجيا، وهم يعرفون حق المعرفة أن الفلسطيني ينتمي الى حضارة عريقة أتت لهذا الكون بانجازات حضارية، فانهم لا يستطيعون أن يحاربوه على أساس أنتروبولوجي، أي على أساس أننا عرق " أحط" لا حق له بالوجود.

ان لديهم عقدة حضارية، فالقوانين التي سنت وتسن هي للحط من قيمة حضارية ناجزة، للحط من قيمة الانسان الفلسطيني، وتضييق الخناق عليه والحد من تطوره كإنسان،وأن يطور هذه القيمة الحضارية.

ان الصراع القائم هو صراع على التاريخ، أو صراع على تأسيس تاريخ، وتأسيس التاريخ لا يمكن أن يتحقق إلا بالوجود، بالتواجد على موجود، على أرض، وهم يريدون أن يمحوا هذا التواجد، هذا الحضور، وقد لجأوا الى التطهير العرقي، أي الى تنظيف هذه الأرض من شعب لا حق له بالوجود حسب ايديولوجيتهم، وهذا التطهير تحقق بواسطة التدنيس بالدم، وكل تطهير جديد يضطرهم الى أن يدنسوا أنفسهم بدم جديد، كمثال ذلك الشخص الذي سقط في الوحل ويحاول أن ينظف نفسه بالوحل.

لقد فشلت محاولتهم في سنة ١٩٤٨ بمحو الفلسطيني، وفشلوا سنة ١٩٥٦، عندما جربوا ذلك"ببرومو" مجزرة كفرقاسم، وفشلوا سنة ١٩٦٧. هذ الفشل أدى بدوره الى ممارسة العنصرية التي تأتي بقوانينها لمحو تاريخ مؤسس، ولمحو ثقافة ومحو هوية، والقانون الذي يريدون سنه،"دولة اسرائيل، دولة الشعب اليهودي"، ليس باستطاعتنا التعامل معه فقط كقانون، وانما بالأساس كمقولة التي تؤكد أن مقولة يهودي هي مقولة قانونية تتم تحت سقف المشروعية الدستورية في نظام يدعي أنه ديمقراطي.